

ما الذي يمنحنا السلام؟

الضمير وهو أساس الحكم على أعمالنا وهو الذي يمنحنا السلام، فالضمير من أهم المسائل الأخلاقية المؤدية إلى دروب السعادة الحقيقية. الضمير هو ملكة للحكم والتمييز بين الخير والشر، ويعمل على تقدير الذات ومنحها الراحة والهدوء حين تكون خيرة؛ ويعمل على تأنيبها وتعذيبها حين تكون شريرة، أو حين ترتكب فعلاً تتدم عليه. كما يقول القديس توما الأكويني: "الضمير هو - على نحو ما - الحكم الصادر من العقل" فهو يُصدر الأحكام على الأفعال، وهذه الأحكام ليست مزاجية أو عبثية بل هي خاضعة لقواعد السلوك الجماعي، الذي ولد فيه الفرد وخاضعة للمعتقدات السائدة في مجتمعه. دوركهيم عالم الاجتماع يقول: "حين يتكلم الضمير فالمجتمع كله يتكلم فينا".

والشقاء عند أوريجين الاسكندري مصدره عذاب الضمير؛ ففكرة العقاب الذي ينزله الله بالخاطئ هذا يجعله يستحضر في ذاكرته خطاياها كلها دفعة واحدة، "فتشعل هذه الذكريات ضرباً من الحمى، تولد في نفسه حزن عميق". الإمام علي قال: "يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم".

مفهوم الضمير لا يختلف كثيراً بين الناس، ولكن المعايير المتبعة تعطي تبريرات مختلفة للأفعال. المهم في هذا الموضوع هو عندما يشتد تأنيب الضمير يشعر الإنسان بالعار وعدم الرضا عن الذات، والسخط على فعل ما، فالماضي لا يمكن تغييره وما حدث قد حدث وسيبقى الفعل يلاحق فاعله ليحرمه من السكينة والراحة لأنه انتهك قاعدة أخلاقية معينة.

"إن تأنيب الضمير هو نوع من الحزن يأتي من الشك الذي ينتابنا من أن شيئاً نفعله أو قد فعلناه ليس جيداً ولا حسناً، وهو يفترض بالضرورة الشك، لأننا لو كنا

متأكدين كلياً بأن ما نفعله كان سيئاً لامتنعنا عن فعله، خصوصاً وأن الإرادة لا تميل إلا إلى الأشياء التي لها مظهر من مظاهر الطيبة. ولو كنا متأكدين من أن ما فعلناه كان سيئاً لانتابنا بسببه الندم لا التأنيب فحسب. والحال أن منفعة هذا الانفعال هو أن يضطربنا لأن نتفحص إن كان الشيء الذي نشك فيه جيداً أو سيئاً، أو أن يمنعنا أن نفعل هذا الشيء مرة ثانية، حين لا نكون متأكدين من أنه حسن وجيد. ولكن لما كان هذا الانفعال يفترض سابقاً وجود الشر، لذا فإن أفضل شيء هو ألا يكون عندنا أبداً أي داع يدعونا للإحساس به، هذا ومن الممكن أن نحتاج منه بالوسائل نفسها التي نستطيع بواسطتها التخلص من التردد... إن الندم هو نقيض الرضا عن الذات، وهو نوع من الحزن يأتي من أننا قد ارتكبنا عملاً سيئاً معيناً، وهو حزن مر المذاق لأن سببه لا يأتي إلا منا".¹⁷

¹⁷ - انفعالات النفس ص 108. 113.